

الأميركيون قضاة الأرض ؟

بقلم المطران جورج خضر

هل يمكنه بعد الكارثة الاخيرة ان يحس انه مدعو الى تغيير لدوره جذري فيصبح من جديد حكما لا طرفا وهذا يقويه ويزيد هيئته ويجعله رجاء للشعوب؟

قد يعذر عن " فشة الخلق" الى حين على الا تكون واسعة الرقعة. قد يردع هذا بعضا من اهل الارهاب الى زمن. لكن الغضب لا يستطيع ان يدوم لأنه يبديد الغاضب نفسه في حين آخر. لمصلحة اميركا اعتقد انه لا بد لها ان تدخل في طور المسالمة بينها وبين الشعوب كلها والكبير يقول السلام بالخدمة واقامة الحق.

لعل التصرف الاميركي في العالم مستقى من الآية الثانية من الاصحاح ٢٦ من نبوءة اشعيا المكتوبة على مدخل جامعة هارفرد: "افتحوا الابواب ولتدخل الامة البارة" ثم يتابع السفر الآية بقوله ان هذه الامة "الحافظة للامانة. ان عزمها لثابت الخ...". اميركا مقتنعة انها مؤهلة بالبر، بما تدعيه برأ لها، ان تدخل ابواب المعرفة التي تمكنها من حكم العالم. اذكر ان الرئيس كلينتون قال شيئا كهذا. القوم تؤهل لهذا الحكم ببر او بلا بر. ومن الواضح ان الآباء المؤسسين اعتقدوا ان العالم الجديد الذي ذهبوا ليسيكونه انما هو ارض الميعاد الثانية التي تنزل عليها البركات. ويعيش الاميركي على ان المال عند وفرته انما هو عطاء الله.

لا يبدو ان الاميركي قرأ الانجيل الذي يحذر كثيرا من المال ويحذر اولا من التسلسل. وبالتأكيد ان المواطن العادي عندهم لم يطلع الادب النسكي الذي يحذرنا كثيرا من استبداد الملك بنا. واذا كان بسط القوة على المدى الاميركي قائما وناجحا فلماذا لا تنبسط القوة على العالم اجمع والنفور منها يمكن قمعه بالانظمة الموالية المستفيدة كثيرا من تحكمها بشعوبها بما يضمن بقاء حكمها عن طريق السياسة الاميركية.

غير انه يجب ان نقرأ التاريخ وكيف اندثرت الممالك: "قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتنزع من تشاء وتذل من تشاء" (سورة آل عمران، الآية ٢٦). لا يبدو ان الاميركيين قرأوا الآية. ولكن لا بد انهم قرأوا ما جاء في المزامير: "ايها الملوك الآن تعقلوا ويا قضاة الارض اعتظوا" (مزمور ١٠٢). المشكلة ان الاميركيين نصبوا انفسهم قضاة الارض يقيمون عدلهم هم - لا العدل - حيثما شأؤوا ولا مرجع لهم الا انفسهم. ولما كانوا على ما تبقى لهم من رسالية على عهد فرانكلين روزفلت اعتقدوا انه يجب انشاء هيئة عالمية يرجعون هم وسواهم اليها لاحقاق الحق حتى تبين لهم انهم قادرون على الاستغناء عنها حيثما تقضي الحاجة ولا يضيرهم بشيء ان تخرج اسرائيل على قرارات هيئة الامة جميعا لأنها هي ايضا اقامت نفسها او اقيمت قاضيا في ارض المشرق.

دعائي الى الله ان تحافظ اميركا على غناها وعلمها والتقنية التي ترعى وان يهديها الى تواضع يجعلها توقن ان احدا لم يقيمها قاضيا في الارض. لعل هذه الكارثة الرهيبة التي حلت بها واوجعتنا تعطلها تصرف نفسها مع الشعوب فلا تستعطي ولا تؤذّب حتى لا يحل العقاب بها. لتحافظ على ثرائها وليزدها الله ثراء ولا تستكبر. لها ان تعظم ولنا نحن الفقراء ان نعظم ايضا وهذا يتطلب منها زهدا بقوتها ولا تستكبر بها. لا احد ينتظر منها ان تكون جمعية خيرية ولكن نتوقع منها الا تستخف بوجودنا وبأبنا نحن ايضا مدعوون الى الحياة. لا نريد ان نتزعزع منها كرامتها فهذا بفض. ولكن ماذا نفعها "لو رحبت العالم كله وخسرت نفسها"؟ اذا جعلت اميركا كل قدرتها في خدمة المستضعفين في الارض يزول الارهاب وربما اطل الحب.

جماعي يعني ان اميركا لكونها يعسر عليها جدا ان تلقي القبض على المخطط ستقتل بديله الوفا مؤلفة من الابرياء، لتقول ماذا؟ فاذا كان الحكم الذي لجأ اليه المخطط مسؤولا عن ابوائه فهل تقدر اميركا على اعادة اهل البلد الأوي، هل تريد؟ ايجوز للدولة الكبرى، المطلقة في كبرها، ان تحصد في مرارتها ناسا لا ناقة لهم ولاجلهم؟ هل هذا عدل ام هذا انفعال؟ الا يفعل هذا طاقات التمرد في الشعوب الضعيفة لتجد يوما مخرجا لها من مأزقها عن طريق ما يسمى الارهاب وما تحس به هي جرحا لكرامتها؟ هل بقي من حوار ممكن بين الاقوياء وضعاليك الارض ومن سلاح الصعاليك الذين قد تذهب الولايات المتحدة الى ابادتهم؟ هل ينتج قتل الفقراء سلما؟

يبدو الآن ان "صراع الحضارات" كما رسمه صموئيل هنتغتون أخذ بالتحقق. مشكلة هذا المصطلح ان الارهاب ليس وقفا على حضارة واحدة. فقد كان المانياً وكان يابانياً ومنذ بضع من السنين اميركا ضمن اميركا نفسها. المسلمون اذاً ليسوا محتكرين للارهاب. ولكن لماذا لا تطرح الولايات المتحدة على نفسها سؤالاً حول الاسباب التي تدفع الضعاف الى ما تسميه الارهاب؟ اليست المظلومية بما فيها العوز والقمع السياسي باعثة الى هذا التصرف واذا كانت الحرب باتت مستحلية بين شعوب الارض كافة؟ اي اذا كان هاجس الصغار ان يتحرروا من التسلسل عليهم واذا كانت وسائل تحريرهم هي قطعاً بيد الكبار لماذا لا تنبسط هذه اليد تعاوناً صادقاً وبدلاً لا ادلال فيه حتى تزول مرارة الضعاف؟

قد تبطش اميركا بطشاً قاسياً الى حين ولكن أتى لها ان تزيل بؤر الارهاب من كل بقعة يجيء منها؟ هل تضرب كل الدول التي صنفتها مصدرية للارهاب ولا تفكر في ان هذه الدول ستطلع من تحت الانقراض لكون احزانها قد تكاثرت وحقدتها قد تكثف وتكون قد دخلنا حلقة جهنمية لا شيء يكسرها؟

واذا ترادف في العقل الغربي الارهاب والعرب والمسلمون نكون امام صليبية جديدة لا نهاية لها قائمة على خرافتين ان الغرب المسيحي وان دار الاسلام في كيانها مصدرية للحرب والخوف اذ يتبع هذا في عقول المسلمين ان المسيحيين أتى كانوا حلفاء الغرب او علاؤهم وانهم تاليا اصدقاء اسرائيل. ان الاسلام السياسي والحضاري يجب ان يقف على قدميه بالفهم والابداع والازدهار في شتى جوانبه حتى يزيل خطر الصليبية عليه لأن استمراره في الفقر والمقهورية هو الذي يدفعه الى صليبية مضادة وباصطلاحه هو الى جهاد ليس هو قادرا عليه. واذا تمرر اكثر من المعقول فانتفض قد يصل الى مواقع انتحارية يرفضها هو في موقع الاستشهاد. ازاء هذا الجنون الممكن توقعه يكون الغرب هشاً لا يصبر كما يصبر الاسلام وتفتنى هذه الصليبية المتجددة كما فنت صليبية القرون الوسطى في بلادنا. ان اصطاف اوروبا الغربية وروسيا الى جانب الولايات المتحدة يقنع المسلمين نهائياً وليس الاصوليين منهم فقط ان المسيحية في كيانها عدوة للاسلام واستقلال شعوبه فنكون امام استعمار متجدد بعدما زالت اشكال الاستعمار القديم.

كنا، بشكل او بآخر، قبل الحرب العالمية الثانية نعتبر الولايات المتحدة رسالية تدعو الى الديموقراطية والحرية. ان هذه الصورة، تزعزت كثيرا وربما كلياً في فلسطين وافريقيا ويوغوسلافيا السابقة ورأينا بلد لينكولن وويلسن يتبنى الـ Realpolitik ولا يكتم انه يرعى مصالحه في الخارج ويصرح انه يدخل، رعاية لهذه المصالح، هذا الخلاف او ذلك، انه لم يبق حاملا ميزان العدل ولا يحتاج هذا في فلسطين التاريخية الى دليل.

وجدنا أنفسنا في مقامات الدماء لما سقطت الضحايا الالوف في اميركا في الحادي عشر من ايلول. موت عابث كموت اطفال العراق. موت حقد على الجبار المطلق دفع ثمنه العائشون على ارض الجبار. موت مجاني احزنني سرعان ما تحول الى خوف على اهلي واصدقائي العائشين هناك. يا ليت موتا كهذا يموت الى الابد. يا ليت اميركا تعلم مقابله بالحياة لها وللآخرين.

بين كتابتي هذه السطور وطبعها ربما سلكت هذه الدولة سلوك الانتقام. لو كان ثابنا ان الثأر يوقف العنف لفعل مذ قتل قايين اخاه في بدء التاريخ. سيكون قتل